## القضية العاشرة[1]

# رؤية مسلمي أوربا للعلاقات الدوليّة

## وفقاً لـ "ميثاق المسلمين في أوربا"

- "ميثاق المسلمين في أوربا" من منظور سياسي.
- تشابك العلاقات.
- العلاقات الدولية وأبعادها.

(١) هذا الفصل هو فحوى محاضرة تم إلقاؤها في بروكسيل، على هامش حفل التوقيع على "ميثاق المسلمين في أوربا" من طرف مئات المؤسسات الإسلامية الأوربية، يوم ١٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٨م.

## "ميثاق المسلمين في أوربا" من منظور سياسي

بين أيدينا وثيقة هامّة، صدرت لتعبِّر عن تصوّرات مسلمي أوربا ومواقفهم وتطلُّعاتهم. وهي حصيلة مشاورات ومدارسات استغرقت أعواماً، بادر بها "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوربا"، وشاركت فيها مؤسسات كثيرة ومؤتمرات وندوات وورش عمل متلاحقة. إنه "ميثاق المسلمين في أوربا"، الذي يُعبِّر في مجرّد صدوره، ومن خلال الالتفاف الواسع الذي حظي به من المؤسسات الإسلامية في عموم هذه القارّة، فضلاً عمّا جاء في نصوصه ومواده، عن كثير من الدلالات الجديرة بالملاحظة.

ومن يتعامل مع هذا الميثاق من خلال ملاحظة السياق الزمني لإصداره، فسيجد أنه يأتي بعد أن اجتذب مسلمو أوربا اهتماماً سياسياً وإعلامياً غير مسبوق في زخمه وطابعه. فقد أصبح عدد من شؤون مسلمي أوربا مطروحاً بزخم فائق في الجدل السياسي والإعلامي والثقافي في السنوات الأخيرة. ومن المؤسف أنّ هذا التناول يأتي في سياقات مأزومة غالباً، وبمضامين تثير القلق عادة، من قبيل التساؤل الذي طرحته مجلة "ذي إيكونومست" المحترمة[1]: «هل ينبغي على غير المسلمين أن يكونوا قلقين» إزاء الحضور الإسلامي في أوربا؟!.

لا شكّ إذن أنّ تعبير مسلمي أوربا عن رؤى عامّة ومواقف مبدئيّة، كما تتضمّنها هذه الوثيقة، مما ينطوي على أهميّة خاصة، وقد يقدِّم إجابات عمّا يدور من تساؤلات، ويجدر أن يأتي مصحوباً بالترقّب والاهتمام من الرأي العام.

ولعلّنا نلحظ أنّ صدور هذا الميثاق يحمل دلالات من منظور الاندماج والمشاركة. فمسلمو أوربا يعبِّرون في هذه الوثيقة عن الذات، وعن تصوّرات

(١) عدد ١٠ آب / أغسطس ٢٠٠٢م.

ومواقف مبدئية، ولا ريب أنّ التعبير بانفتاح وثقة واقتدار عن الذات، هو من مقتضيات فعل المشاركة المجتمعية وحتى السياسية.

وإذا كان واضحاً أنّ "ميثاق المسلمين في أوربا" ليس وثيقة سياسية الطابع؛ فإنها تقدِّم تصوّرات مبدئية يُسترشَد بها في مجالات شتى؛ منها، كما سيتضح، ما يتعلّق بشؤون العلاقات الدولية وأُطر التعاطي السياسي. وبهذا، فإنّ ما يتناوله الميثاق في هذه الجوانب يكتسب طابع الإجمال والإحاطة، لا التفصيل والاجتزاء.

وإذا ما تعلّق الأمر بالشأن الدولي وشواغله فإنّ بوسعنا التعامل مع هذا الميثاق ليس فقط على أنه معبِّر عن التزام ذاتي يتحرّاه مسلمو أوربا، وإنما كذلك باعتباره رسالةً لعالم يعاني اختلالات عدّة؛ تبدأ من كيفية إدارة العلاقات بين الأمم والشعوب؛ أي المجتمع الدولي، وتنتهي ربما بإدارة العلاقة البشرية مع الكون والبيئة؛ بما في ذلك مسائل مطروحة بقوّة على جدول الأعمال العالمي مثل الاحتباس الحراري.

## تشابك العلاقات

لدى التعامل مع "ميثاق المسلمين في أوربا"، نجد أنّه يقدِّم تصوّراً متوازناً ومتعدِّد الأبعاد لعلاقات الوجود المسلم الأوربي. فهو يتطرّق إلى **أربعة مستويات من العلاقات** ذات الأثر في هوية مسلمي أوربا، ومن الواضح أنّ الأمر يتعلّق بمستويات مترابطة ولا مجال لافتعال حدود فاصلة بينها.

**فهناك مستوى يتعلّق بمسلمي أوربا أنفسهم**، وهو مستوى يتأسّس على الاشتراك في الانتماء الديني والانتماء الأوربي معاً. ويؤكد الميثاق بشأن هذا المستوى واقع التنوّع الذي عليه الوجود المسلم الأوربي. وقد ورد في المادة الخامسة عشرة: «إنّ المسلمين في أوربا، انطلاقاً من مبادئ دينهم ومن مقتضيات مصالحهم المشتركة مدعوّون إلى العمل على الالتقاء والتعاون

فيما بينهم، وتنسيق الجهود بين مؤسّساتهم وهيئاتهم، دون أن يمنع ذلك من إقرار طبيعة التنوّع بينهم، وذلك فيما تتّسع له دائرة الإسلام العامّة وفي إطار عقائده وأحكامه المُجمَع عليها».

**وهناك مستوى يتعلّق بعلاقة "الانتماء" إلى الأوطان الأوربية**، وهي العلاقة التي تفرض "أولويةَ التزام بمقتضيات المواطنة". وقد تناول الميثاق في العديد من مواده هذه العلاقة، لجهة مواصفاتها ومقتضياتها والتزاماتها، خاصة أنّ هذه الوثيقة تقدِّم كذلك رؤية مسلمي أوربا للمجتمعات التي ينتمون إليها، وللبلدان التي يعيشون بين أكنافها.

وفي الوقت ذاته؛ هناك محافظة على علاقة التواصل ضمن دائرة الانتماء المسلم في الفضاء العالمي، وهي علاقة محكومة بمنطق الأخوّة، ويشير الميثاق إلى أنها تندرج في إطار الصلة الطبيعية بين المنتسبين إلى الدين نفسه.

وقد جاء في المادة السادسة عشرة: «إنّ المسلمين في أوربا، مع انتمائهم إلى أوطانهم الأوربية وأولوية التزامهم بمقتضيات المواطنة؛ يحافظون، في ذات الوقت، على تواصلهم مع جميع إخوانهم المسلمين، ويندرج هذا التواصل في إطار الصلة الطبيعية بين المنتسبين إلى الدين نفسه ».

ثم إنّ هناك مستوى يتعلّق بالانتماء الإنساني الجامع، في عالم واحد ومتنوِّع. وما يلفت الانتباهَ أنّ الميثاق استفاض في تناوله لهذا المستوى؛ لأنّ آصرة الانتماء الإنساني تبقى القاسم المشترك في المستويات جميعاً، ولكونها تمثل أرضيّة للتعايش المتبادل وتنطوي بحدِّ ذاتها على رؤية للواقع البشري في سياقات شتى.

من هنا نجد أنّ الميثاق في مادته الرابعة يؤكد أنّ «من الخصائص العامة للإسلام، اعتباره للبُعد الإنساني العام، واتصافه بالمرونة في نظامه التشريعي، واحترامه للاختلاف الطبيعي بين الناس».

ويضيف الميثاق في المادة الخامسة: «إنّ الإسلام قد كرّم الإنسان واعتبره خليفة في الأرض، وإنّ هذا التكريم الإنساني يشمل جميع بني آدم رجالاً ونساء دون تفريق، وإنّ من مقتضيات التكريم حماية الإنسان من كل ما يمسّ حياته أو كرامته أو يهدر طاقته العقلية أو يُضعِف صحته، أو يستغل ضعفه لهضم حقوقه أو الاعتداء عليه».

وتأتي مواد أخرى لتتناول أبعاداً ذات صلة بالشأن الإنساني، مثل البعد الاجتماعي في المادة السادسة، والنظرة إلى الرجل والمرأة في المادة السابعة، ومسألة الأسرة والمجتمع في المادة الثامنة، ثم حقوق الإنسان والمساواة في المادة التاسعة، علاوة على مواد أخرى تطرّقت إلى المبادئ والقيم ضمن المجتمع الإنساني.

ومما يستوقفنا على نحو خاص، ما تضمنته المادة العاشرة من الميثاق، خاصة أنها من المواد المستفيضة، والتي تتصل بشاغل من الشواغل المطروحة بقوّة على جدول الأعمال العالمي، ثقافياً وإعلامياً وسياسياً. ويأتي في هذه المادة: «إنّ الإسلام يدعو إلى التعارف بين الناس، وإلى الحوار والتواصل والتعاون بين الأمم والشعوب، من أجل تحقيق التعايش وضمان السلام العالمي. وإنّ مصطلح الجهاد الذي ورد في النصوص الإسلامية يعني بذل الجهد في طريق الخير انطلاقاً من إصلاح النفس، إلى إشاعة الحق والعدل بين البشر، وإنّ الجهاد بمفهوم القتال يُعَدّ من الإجراءات التي قد تلجأ إليها الدولة ذات السيادة في حالة الدفاع المشروع لردّ الاعتداء، وإنّ ما يقرِّره الإسلام في هذا المجال لا يختلف عما تُقرّه القوانين والمواثيق الدولية السائدة في العالم. ومن هذا المنطلق فإنّ المنهج الإسلامي يرفض العنف والإرهاب، ويناصر القضايا العادلة، ويقرّ حق الناس جميعاً في الدفاع عن حقوقهم بالأساليب المشروعة، بعيداً عن الانحياز والظلم».

## العلاقات الدولية وأبعادها

وإذا ما نظرنا إلى "ميثاق المسلمين في أوربا" من منظور العلاقات الدولية وما يتّصل بها من أبعاد؛ فإنّ هذه الوثيقة ستستوقفنا في عدد من المواد. فالميثاق يتناول مسائل عدة في هذا الجانب، منها:

* عملية الوحدة في أوربا.
* العلاقات بين الأمم والشعوب.
* العلاقات بين أوربا والعالم الإسلامي.
* العلاقات بين الحضارات والأديان والمعتقدات.
* المسألة البيئية والتعامل مع الموارد في هذا الكوكب.

**فبشأن عملية الوحدة الجارية في أوربا**؛ نلحظ أنّ الميثاق يتجاوز المدخل التقليدي إلى مسألة الوحدة الأوربية، فهو لا ينشغل بالموقف الابتدائي منها، كثنائية تأييدها أو معارضتها؛ وإنما ينفذ إلى ما هو أعمق وأكثر تفاعلاً، عندما يقدم تصوّراً لدور مسلمي أوربا في تلك العملية ومآلاتها، وهو ما ينسجم مع إرادة المشاركة الفاعلة سياسياً ومجتمعياً. ففي مادته السادسة والعشرين؛ يورد الميثاق أنّ «المسلمين في أوربا من خلال رصيدهم الديني والثقافي، ومن خلال وجودهم في مختلف البلاد الأوربية؛ يشكّلون عامل دعم لجهود التقارب في إطار الوحدة الأوربية، مما يجعل من أوربا قطباً حضارياً هاماً، قادراً بما يحمله من مكوّنات دينية وثقافية متنوّعة، على القيام بدور التوازن في العالم».

ومن المثير للاهتمام أنّ الحضور الأوربي الذي ينشده مسلمو أوربا، وفقاً لهذه المادة، يكتسب طابعاً "حضارياً"، بما يُفهَم منه بالضرورة أنه متحرِّر من أغلال الماضي وأوزاره، بما في ذلك التجربة الاستعمارية ذات الظلال القاتمة.

كما أنّ التصوّر الضمني الذي يأتي في هذا النصّ يربط الدور الدولي المنشود لهذه القارّة ببروز قيمة التنوّع الديني والثقافي في الحضور الأوربي الذي يخاطب العالم؛ أي يعلي من شأن التعدّدية بدلاً من الارتكاس إلى الأحادية. وإنّ الدور المأمول من القطب الأوربي على المسرح الدولي، هو حسب ما يُستَنتج من الميثاق، دور يبتعد عن الجنوح نحو تحالفات لا تخدم عامل التوازن المطلوب في العلاقات الدولية. واضح أننا في هذه المادة من الميثاق إزاء رسالة ذات مغزى، لا تغفل السياق الزمني الذي يعيشه المجتمع الدولي، في ظل أحادية القطبية الراهنة وتفاعلاتها المثيرة للجدل.

**وعلى صعيد العلاقات بين الأمم والشعوب**؛ يؤكد الميثاق في مادته الثالثة والعشرين أنّ «الإسلام بمبادئه الإنسانية العالمية يؤمن بالتقارب العالمي الذي يحترم حقوق الشعوب وخصوصيّاتها، ويلتزم بقواعد العدل في التبادل والتعاون بين الناس، بعيداً عن كلّ أسباب الهيمنة والاستغلال».

**وفيما يتعلق بالعلاقات بين أوربا والعالم الإسلامي**؛ تستوقفنا ابتداءً الفقرات الأولى من الميثاق، حيث ورد فيها أنّ من بين أبرز دواعي وضعه؛ هو أنّ «الحضور العالمي للإسلام، باعتباره أحد الأديان الكبرى، بما يملكه من رصيد روحي وحضاري وبشري هامّ، وما تستلزمه المصالح المشتركة من ضرورة التواصل والتقارب مع الغرب عموماً، ومع أوربا خصوصاً؛ يقتضي توطيد سبل التعاون وإشاعة العدل والسلام العالمي».

ثم يأتي في المادة الثالثة والعشرين من الميثاق أنّ «المسلمين في أوربا يدركون أنّ من واجبهم أن يساهموا في توطيد العلاقة بين أوربا والعالم الإسلامي، وأنّ من مستلزمات ذلك العملَ على التخلّص من الصورة النمطية السلبية بين الإسلام والغرب، من أجل بناء أواصر التواصل بين الشعوب والتفاعل المثمر بين الحضارات».

ومما يلفت الانتباه أنّ الميثاق عندما أشار إلى الدور الإيجابي الذي يتمثّله

مسلمو أوربا في دعمهم لعلاقة إيجابية وطيدة بين أوربا والعالم الإسلامي، قد تحاشى استخدام تعبير "الجسر" الذي كثيراً ما يصادفنا في نصوص ذات مضامين شبيهة. ونجد هنا أنّ هذا الحرص في الصياغة اللغوية ينسجم تماماً مع الرؤية التي يقدِّمها الميثاق لمسلمي أوربا، فهم لا يمكن أن يكونوا مجرد "جسر" معلّق بين عالمين، بما سيعنيه ذلك من حالة انفصام نسبيّة عن الواقع الذي ينتمون إليه، على الدور الإيجابي الذي تمثله "فكرة الجسر" تلك. ففكرة الجسر لا تبدو منسجمة مع ما تطرّق إليه الميثاق في مادته السادسة عشرة، من تنبيه إلى علاقة "انتماء" المسلمين إلى الأوطان الأوربية، بما تعنيه من شراكة في الواقع والمصير، والتي تتناغم مع علاقة "التواصل" ضمن دائرة الانتماء المسلم في الفضاء العالمي، المحكومة بمنطق الأخوة وبما تمليه من التزامات.

**وبشأن العلاقات بين الثقافات والأديان**؛ يلفت الميثاقُ، في مادته الخامسة والعشرين، الانتباهَ إلى ما يعكسه الوجود الإسلامي في أوربا من تجسيد التواصل والتعايش في عالم إنساني تعدّدي، ودعم الحوار الديني والثقافي الذي يمثل اليوم قضية مطروحة بقوّة غير مسبوقة على جدول الأعمال العالمي. فـ«الوجود الإسلامي في أوربا يُعتبر عنصراً هاماً لتحقيق التواصل والتعايش بين الأديان والمعتقدات المختلفة؛ من خلال تفعيل الحوار الديني والفكري، الذي يدعو إليه الإسلام ويشجع عليه، وإنّ ذلك من شأنه أن يدعم مسيرة السلام العالمي»، طبقاً لما جاء في تلك المادة.

ومما يعزِّز ذلك الدور ما جاء في المادة الرابعة والعشرين من هذه الوثيقة، التي تؤكد أنّ «الإسلام بما يملكه من رصيد للقيم الإنسانية والتجارب الحضارية، يمكنه أن يساهم عبر الوجود الإسلامي الأوربي في دعم مكانة القيم العامة التي تخدم مجتمعاتنا المعاصرة، كقيم العدل والحرية والإخاء والمساواة والتكافل، وتأكيد البعد الإنساني والأخلاقي في المجال الاجتماعي وفي مجال التقدم العلمي والتقني والاقتصادي، وإن في هذا الإسهام من الإثراء النافع ما تعود فائدته على الجميع».

**أما في المسألة البيئية والتعامل مع الموارد في هذا الكوكب**؛ فينصّ الميثاق في مادته الثالثة عشرة على أنّ «الإسلام يدعو الإنسانَ إلى استثمار الكون الذي سُخِّر لمصلحته، استثماراً يُراعي فيه المحافظة على البيئة وضرورة حمايتها من أسباب التلوّث والاندثار، ومن كل ما يؤدي إلى اختلال التوازن الطبيعي، كما يدعو إلى العناية بالمكوِّنات الطبيعية، ويحثّ على الرفق بالحيوان، وينهى عن التبذير والإسراف».

يبقى أن نلفت إلى أنّ تصوّراً بهذه الإحاطة لجوانب شتى وسياقات متعدِّدة، وفي انسجام وتناغم؛ لا يقوم من فراغ، أو من صياغات إعلاميّة لحظيّة، وإنما يتأسّس على أرضيّة من نظرة إسلاميّة تتفاعل مع الواقع الإنساني عامة والواقع الأوربي خاصة، ولا سيما أنّ الميثاق عالج في مواده الأولى "منطلقات الفهم الإسلامي العام"، وهي المنطلقات التي انبثقت منها مواده التالية ونهضت عليها نصوصه اللاحقة.

أما الخاتمة؛ فجاءت منسجمة مع المنطلقات ذاتها، فهي تتكلّل بالآية القرآنية الثالثة عشرة من سورة الحجرات، التي أسّست لقيمة التعارف الإنساني باعتبارها المبدأ الذي ينبغي أن ينتظم العلاقات الإنسانية في شتى مستوياتها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].